المورد

مجلة تراثية فصلية محكمة

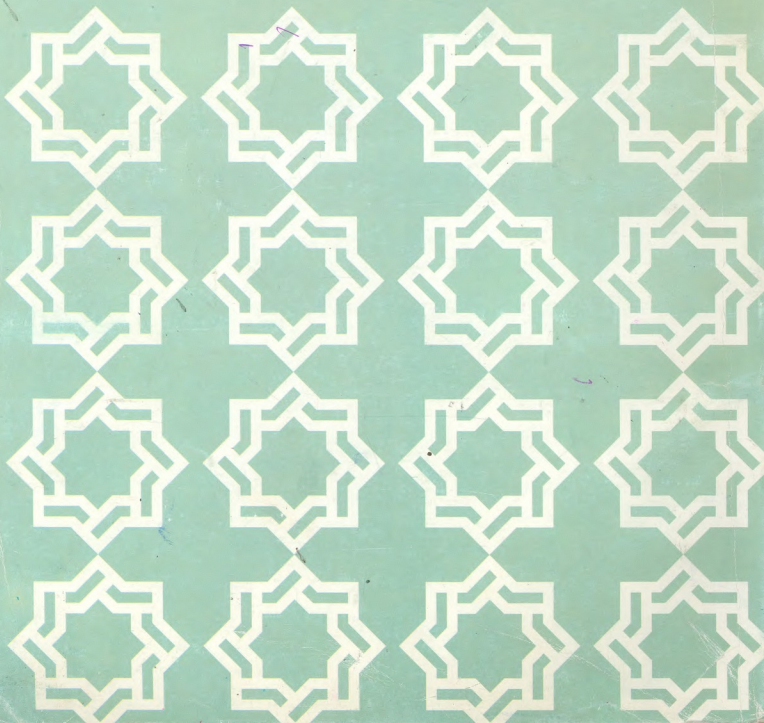

حسن باشا

مؤسس نظام المماليك في العراق

بقلم

عبدالواحد ذنون طه

معهد اعداد المعلمين في الموصل ـ محافظة نينوى

حياته :

يعتبر حسن باشا من الشخصيات المهمة التي حكمت العراق خلال القرن الثامن عشر الميلادي ، وترجع اهميته الى شخصيته القوية ، وسيطرته على عشائر العراق ، والى تاسيسه لسلالة المماليك التي حكمت العراق من بعده ، والى ما كان له من علاقة مع ايران في اواخر ايام حكمه .

ولد حسن باشا في حدود سنة (١٦٥٧ م) في (قترين) وهي منطقة من مناطق الروميلي ، او مايطلق عليها الان ، تركيا الاوربية ، من ابوين ، هما مصطفى بك ، وفاطمة خاتون . وكان والده في خدمة السلطان ، من جملة (الاسباهية) ، (١) الذين كانوا معسكرين في منطقة (قترين) ، وقد تربى في مدارس السراى وتثقف بثقافتها ، وباتت عليه منذ صغره امارات الذكاء ، وحب العمل ، والشجاعة ، مما ادى الى ان يعجب به الصدر الاعظم ، مصطفى باشا ، ويستخدمه في القصر .

عرف حسن باشا باسماء عديدة وبالقاب كثيرة ، فقد اطلق عليه عندما تولى بغداد ، لقب (حسن باشا الجديد) ، (٢) وكان يسمى ايضا بالايوبي ، نسبة الى محلة ابي ايوب الانصاري في استنبول ، (٣) ويبدو انه سكن في هذه المحلة فترة من الزمن ، ولكني لم اعثر على مايؤيد هذا اللقب (الايوبي) عند غير « العزاوي » . ويذكر الدكتور علي الوردي :(٤) انه من اصل اموي ، والواقع ان هذا الاصل مستبعد جدا ، ولم اعثر على مايؤيد الدكتور الوردي في القول ، واغلب الظن ان حسن باشا يعود باصله البعيد الى شعوب اوربا الشرقية ، ولربما كان اجداده بلغارا او رومانيين او ماشابه ، ودليلنا على ذلك ، هو وجود اسرته في الروميلي اول الامر ، وولادته في (قترين) .

تبدا سيرة حسن باشا الرسمية في قصر السلطان العثماني في حدود سنة (١٦٨٣ م) ، فيتولى عدة مناصب مهمة حتى سنة (١٦٩٧ م) ، منها منصب « الجيفرجي باشي » ، (٥) ومنصب امارة العلم ، ومنصب « رئيس البوابين » (٦) بعد ذلك يعمل حسن باشا والياً في عدة مناطق تابعة للدولة العثمانية ، ففي سنة (١٦٩٧ م) اسندت اليه ولاية قونية ، ودامت ولايته فيها نحو سنة واحدة ، ثم بعدها مباشرة ولاية حلب سنة (١٦٩٨ م) ، ومن اعماله في هذه الولاية انه جدد دار الحكومة ، واستمرت ولايته فيها سنتين ، تولى بعدها منصب ولاية الرهي ، واهم ما قام به في هذه الولاية ، هو تاديبه لاعراب المناطق المجاورة ، وتشييده دارا جديدة للحكومة ، واستمرت ولايته فيها سنتين ايضا ، ثم اسندت اليه ولاية ديار بكر سنة (١٧٠٢) م ، وفيها اخضع القبائل الكردية ، فاطاعته وغدا مسموع الكلمة (٧) . وبعد ولايته على حلب نقل الى ولاية بغداد عام (١٧٠٤ م) (٨) واستمر واليا على بغداد الى نهاية حياته سنة (١٧٢٣) م .

---

(١) السباهي : في الانكليزية (Sepoy) وفي الفرنسية (Spahi) وهي الصفة من الكلمة الفارسية (سپاه) بمعنى جيش ، وقد استعار الاتراك هذه الكلمة ، وهي تطلق على الجندي من الفرس . انظر : دائرة المعارف الاسلامية ، الترجمة العربية ، مادة (سباهي) .

(٢) لتميزه عن والي آخر ، اسمه حسن باشا ، كان قد سبقه على ولاية بغداد .

(٣) عباس العزاوي : تاريخ العراق بين احتلالين ، جـ ٥ ، ص ١٦١ ، (بغداد ، ١٩٥٣) .

(٤) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث ، جـ ١ ، ص ٩٥ ، (بغداد ، ١٩٦٩) .

(٥) الشيخ عبدالرحمن السويدي : تاريخ بغداد او حديقة الزوراء في سيرة الوزراء ، تحقيق : د . صفاء خلوصي ، جـ ١ ، ص٩ ، (بغداد ، ١٩٦٢) .

ويحتمل ان اصطلاح « جيفرجي » الذي ورد في هذا المصدر ، هو : « جيبه جي » التركي ، ويعني جندي من الجنود القديمة ، (الامبراطورية) ، المختصة بالاسلحة ، وبعدتها المدفعية ، ومخازن الاسلحة . انظر : س . هـ . لونكريك ، اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ، ترجمة : جعفر خياط ، ص ٤٢٣ (بغداد ، ١٩٦٨) .

(٦) حديقة الزوراء ، جـ ١ ، ص ٩ .

(٧) نفس المصدر ، جـ ١ ، ص ١٣ ، تاريخ العراق بين احتلالين ، جـ ٥ ، ص ١٦١ .

(٨) ذكر الرحالة نيبور خطأ ، ان سنة تولي حسن باشا ولاية بغداد هي (١١١٤ هـ ، الموافقة ١٧٠٢ م) ، وذلك للمرة الثانية ، بينما الصواب هو ما ذكرنا من ان توليه هي (١٧٠٤ م) ، وكان ذلك لاول مرة . انظر : رحلة نيبور الى العراق في القرن الثامن عشر ،

أهمية حسن باشا في تاريخ العراق :

قبل الحديث عن اهمية حسن باشا ، نتطرق الى ذكر الحالة العامة للعراق ، وفي ولاية بغداد بالذات ، ومن هنا نستطيع ان ننطلق الى ما احدثه حسن باشا في تاريخ هذه الفترة ، ومزايا حكمه الطويل فيها . كانت حالة بغداد سيئة جدا ، وكان الوضع مترديا فيها لان « الينيجرية » كانوا هم الحاكمون والمسيطرون على كل شيء في داخلها ، بينما تنفذ الاعراب وسيطروا على اطرافها ،(٩) وكانوا ـ الاعراب ـ يباهون بعصيات الحكومة والعبث في البلاد (١٠) ولم يستطع ولاة الدولة العثمانية ان يقوموا بعمل جوهري لكسر شوكة الاعراب والعشائر ، فلقد تعاقب على ولاية بغداد نحو ثلاثين واليا منذ ان افتتحها مراد الرابع سنة (١٦٢٨) م ، الى عهد حسن باشا ، حكم كل واحد منهم فترة قصيرة ، ولم يترك عملا مهما يذكر به ، وجل ما كانوا يقومون به تجاه العشائر ، هو تجهيز الجيوش عليهم والتي غالبا ماكانت ترجع خاسرة مقهورة ، والسبب في ذلك ان هؤلاء الولاة لم يكونوا ليدركوا مشكلة العراق الكبرى ، واعني بها مشكلة العشائر ، ولم يتبعوا الاسلوب الصحيح لمعالجة هذه المشكلة ، واعتقدوا ان العنف هو الحل الوحيد لذلك ، ناهيك عن ان هؤلاء الولاة ، كانوا يعتبرون تعينهم في بغداد بمثابة نفي لهم وابعاد عن مركز السلطة في العاصمة ، لهذا كانت ادارتهم للبلاد غير جدية ، اما حسن باشا ، فلم يكن يشعر بهذا الشعور ولا ابنه احمد باشا ، لانهما كانا « لايريان ، ولايتهما مكانا ينفي اليه الحاكم او ان الكسب فيه قليل » (١١) لهذا جلب حكم حسن باشا الامن والاستقرار للبلاد «وكانت ولايته بالتجربة عهدا جديدا دخلته بغداد»(١٢) ومما يدل على اهمية هذا الوالي ، اننا نجد ، عبدالرحمن السويدي ، يطلق عليه لقب « الملك المظفر » مما يدل على مبلغ ما اتصف به هذا الوالي ، خاصة واننا لم نعثر السويدي (١٣) ، يطلق عليه لقب « الملك المظفر » مما يدل على مثل هذه التسمية لوالي آخر من ولاة بغداد . واخيرا يمكننا ان نرجع الاسباب العامة لاهمية حسن باشا في تاريخ العراق الى النقاط الاربع الاتية : (١٤)

١ ـ حكم حسن باشا الطويل في بغداد ، الذي لم ينازعه عليه احد .

٢ ـ اصلاحاته وتدينه والامن الذي وفره للبلاد .

٣ ـ غزوه الموفق لبلاد ايران .

٤ ـ تاسيسه لسلالة حاكمة من بعده (نظام المماليك)

والواقع ان ماتبقى من البحث لايعدو ان يكون توسعا في هذه النقاط الاربع ، وتسليط الاضواء عليها ، حتى نتمكن من تكوين صورة واضحة لحسن باشا ولعهده في العراق .

سياسة حسن باشا تجاه العشائر :

ذكرنا حالة الفوضى والاضطراب التي كانت سائدة في العراق قبل مجيء حسن باشا ، وكيف ان العشائر كانت قد استفحل امرها ، وتضائلت امامها قوة السلطة ، ولم يكن امام حسن باشا عند اول مجيئه الى بغداد الا ان يستعمل مع العشائر اسلوب القوة لاخضاعها وكبح جماحها ، فقام بسلسلة من الحملات الناجحة الموفقة عليها ، وسوف يكون من الممل ذكر جميع الحروب التي جرت بين السلطة والعشائر، ولكن سياق البحث يتطلب الاشارة اليها ، وسأحاول ان اختصر في الوقائع ، محيلا القارىء الى الهوامش اذا اراد تتبع الموضوع في المصادر الاخرى .

بدا حسن باشا سنته الاولى ، الولاية (١٧٠٤ م) ، بحملة على عشائر آل شهوان ، وآل غرير في جنوبي الموصل ، وانتصر عليهم في موقعة « الخانوقة » (١٥) ، وبعد رجوعه من هذه الحملة اعلن للعشائر بواسطة منشور عممه عليهم ، بوجوب اطاعتهم للدولة ، وترك العصيان . ثم لم يلبث ان قام بحملة تاديبية اخرى على بني لام ، وكان هؤلاء من الاعراب الاشداء المنتشرين في شرقي دجلة (١٦) ، فانتصر عليهم وامن الطرقات . وفي سنة (١٧٠٥) م وجه اكبر حملاته على سليمان رئيس الخزاعل ، الذي ماليث ان فر الى الشيخ مانع شيخ المنتفك ، مما ادى بحسن باشا الى ان يقوم بحملة على المنتفكيين ورئيسهم مغامس المنع . خاصة وانهم هددوا البصرة ووالييها خليل باشا ، وقد انتصر عليهم وفر مغامس المانع . ونتيجة لجهود حسن باشا جاءه الانعام من السلطان باضافة تولية البصرة اليه (١٧) ، وان يعين من يراه لائقا لادارتها ، ويذكر العزاوي (١٨) ، ان منشور الولاية ارسل اليه خاليا من الاسم ، بينما يقول لونكريك (١٩) ، ان حسن باشا « اعطي ايالة البصرة رسميا باقتراح منه على الارجح ، وكان يحكم عنه فيها متسلم » . ومن حملاته الاخرى ، حملة على قبائل شمر ، واخرى على قبائل الفرات الاوسط ،

ترجمة : د . محمود حسين الامين ، ص ٥٤ ، (قائمة ولاة الدولة العثمانية على بغداد) .

(٩) نفس المصدر ، ص ٥٤ .

(١٠) سليمان فائق : تاريخ المماليك « الكولة منذ » في بغداد ، ترجمة : نجيب ارمنازى ، ص ١٤ (بغداد ، ١٩٦١) .

(١١) سيتون لويد : الرافدان ، ترجمة طه باقر ، ويشير فرنسيس ، ص ٢٤٧ ، (بغداد ، ١٩٤٣) .

(١٢) ريجارد كوك : بغداد مدينة السلام ، ترجمة : د. مصطفى جواد و د . فؤاد جميل ، ج ٢ ، ص ٦٦ (بغداد ، ١٩٦٧) .

(١٣) حديقة الزوراء ، ج ١ ، ص ٦٥ .

(١٤) S.H. Longrig : Four Centuries of Modern Iraq. p. 123 (Beirut, 1968).

(١٥) حديقة الزوراء ، ج ١ ، ص ١٨ ـ ٢٢ . ويسميها ياسين العمري باسم « الخانوكة » ويقول ، انها جبل مطل على نهر دجلة بين بغداد والموصل ، انظر : غاية المرام في تاريخ محاسن بغداد دار السلام ، ص ١٧٧ ، بغداد ، ١٩٦٨) .

(١٦) حديقة الزوراء ، ج ١ ، ص ٢٧–٢٩ ، تاريخ العراق بين احتلالين ، ج ٥ ، ص ١٦٤–١٦٥ .

(١٧) حديقة الزوراء ، ج ١ ، ص ٦٢ ، ولزيادة التفاصيل عن موضوع البصرة انظر : نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٥٣–٦٢ ، وتاريخ العراق بين احتلالين ، ج ٥ ، ص ١٧٥ ـ ١٨٥ .

(١٨) تاريخ العراق بين احتلالين ، ج ٥ ، ص ١٨٤ .

(١٩) اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ، ص ١٥٧ .

آل حميد ، وآل سعدة وآل رفيج ، آنتهت بانتصاره عليهم جميعا(٢٠) .

لم تكن جميع حملات حسن باشا على القبائل العربية ، بل كان للقبائل الكردية نصيب منها ايضا ، ففي سنة (١٧١٥ م) والسنة التي تليها ، جرد حملة على قبائل البلباس في شرقي اربيل واعاد النفوذ التركي الى المناطق البابانية ، كما اعاد النظام الى حرير . وجرد حملة اخرى على اليزيدية في سنجار بسبب اصرارهم على نهب القرى وقطع الطريق ، ورجع من حملاته هذه منتصرا على الرغم من فقده الكثير من الرجال والاعوان .

كانت النتيجة الحتمية لهذه الحملات والانتصارات التي حققها حسن باشا « ان اخضعت المناطق البعيدة التي تفصل العشائر غير الخاضعة للحكومة ، واضعفت التيارات والتأثيرات الخارجية التي كانت معقدة من قبل وغير قابلة للحل ، فقد كان لبني لام علاقات مستمرة من حلف او حرب مع قوة الحويزة المجاورة ، وكانت قبائل الجاف والبلباس ، وقبائل الحدود الكردية والايرانية خاضعة لاغراء ووعود ، او تهديد بني لام والحويزة ، وكانت قبائل الفرات ، نصف المتوطنة ، تزعج من قبل بدو الصحراء »(٢١) . لقد تغيرت هذه الاوضاع كلها خلال ولاية حسن باشا ، نتيجة لحملاته وانتصاراته عليهم .

ان استعراض هذه الحملات والانتصارات ليس مهما في هذا الموضوع ، لكن التوصل الى نتائج سياسته هذه وحملاته ، وما كان يقوم به في اثنائها ، واسلوبه في معاملة العشائر بعد الهزيمة ، هذه الامور كلها ، هي التي اعطت الاهمية لهذا الوالي ، ومكنته من السيطرة على البلاد .

نتائج سياسته مع العشائر :

كانت النتيجة الاولى لحملات حسن باشا ، ازدياد طاعة العشائر للحكومة ، وتوفر العدالة نوعا ما في البلاد ، وهكذا نالت (الدولة) التي كانت القبائل تتجاهلها وتزدريها في العادة ، احتراما مؤقتا ، ان لم نقل حبا قليلا(٢٢) ، ولكن ذلك لم يكن بمجرد الضبط العسكري ، بل ان اساليب حسن باشا في المعاملة مع العشائر بعد الانتصار كان لها الاثر الاكبر في استمالة بعض القبائل ، من ذلك مثلا ، انه كان بعد ان ينتصر على عشيرة من العشائر ، يعفوعن الباقين ، ولايتعرض الى النساء ، بل يرجعهن الى عشائرهن ، وكان هذا دابه في معظم غزواته (٢٣) ، بينما كان الولاة السابقون ، اذا ظفروا بالعشائر « ياسرون النساء والشباب والاماء والصبيان ، ويبيعونهم في الاسواق ويسومونهم الخسف ... » (٢٤) .

(٢٠) انظر : حديقة الزوراء ، فيه تفصيلات مطولة عن هذه الحملات ، ج ١ ، ص ٣٩-٥٢ .

(٢١) S.H. Longrigg, Op. cit., p. 124.

(٢٢) لونكريك ، ص ١٥٨ .

(٢٣) حديقة الزوراء ، ج ١ ، ص ٣٤ ، ٤٢ ، ٤٥ ، ٥٢ .

(٢٤) نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٢١ .

اتبع حسن باشا اسلوب العفو عند المقدرة ، ولم يحاول ان ينكل برؤساء العشائر ، فنراه مثلا يعفو عن (سليمان الخزعلي) سنة (١٧١٨ م) بعدتوبته ورجوعه الى بغداد ، ويعفو عن (عبدالعال) احد شيوخ بني لام الذين ثاروا عليه. ومن اساليب حسن باشا الاخرى ، حل مشاكل العشائر بالحسنى وكثيرا ما اخذت العشائر تستعين به في حل مشاكلها ، من ذلك مثلا ما حدث سنة (١٧١٨ م) عندما استعانت به عشيرة بني لام ، فسافر اليهم وحل نزاعا كان مستحكما بينهم .

لقد كان تاثير هذه السياسة على العشائر كبيرا ، فنتيجة لها اخذ بعض الاعراب يشتغلون بالزراعة واستوطنوا وانتظموا في سلك المجتمع ، وابدوا الاصلاح ، او كما يعبر السويدي (٢٥) : « بادر الاعراب الى الزراعة والدخول في سلك المسلمين والجماعة واشتغلوا بامور معاشهم .. » ويبدو ان حسن باشا كان يرغب في اسكان العشائر واستقرارهم ، (٢٦) بل اكثر من هذا ، فقد استطاع حسن باشا ، حسب مايذكر الرحالة نيبور (٢٧) ، ان يستخدم القبائل العربية في غزواته لاجل توسيع سلطان ولايته ، وهذا يدل على مقدار الطاعة التي ابدعتها العشائر ، بحيث جعلت الوالي يثق بها ويستخدمها في مشاريعه الخاصة . ويذكر نيبور ايضا ، ان الاعراب لم يتصفوا بالهدوء في اي عهد من العهود الا في زمن حسن باشا ، وابنه احمد ، وسليمان باشا ، وقد انتشر الامن في هذا العهد بحيث « اصبح باستطاعته المرء ان يسافر لوحده بغير حاجة الى رفقه او حراسة سواء أكان السفر في دجلة ام في الفرات ام في البر ، ولايجسر على نهبه وسلب ما عنده من متاع » . (٢٨)

اعماله واصلاحاته :

لم تكن جهود حسن باشا مكرسة باجمعها الى شؤون العشائر ، ومحاولة اخضاعها ، بل اهتم بامور البلاد الاخرى ، وحاول ان تشمل اصلاحاته مختلف مرافق الحياة العامة للبلد ، فقد ربط الديانة بالحكومة ، واكثر من تاسيس الجوامع وتعميرها ، واشتهر بفعل الخيرات « ولهذا عرف حتى اليوم بابي الخيرات اي المحسن » (٢٩) ومن اصلاحاته المهمة ، تعميره لقنطرة آلتون كوبري ، وتجديده لقناطر اخرى تقع بين الموصل وكركوك ، وبناؤه مسناة لجسر بغداد ، وصدرا جديدا لنهر الحسينية في كربلاء ، المعروف بالنهر السليماني (٣٠) . وكانت الاموال التي تنفق على هذه المشاريع معظمها من ماله الخاص (٣١) . وقد الغى حسن باشا ضريبتين قاسيتين ، كانتا موجودتين

(٢٥) نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٧٢ .

(٢٦) لونكريك ، ص ١٥٨ .

(٢٧) رحلة نيبور الى العراق في القرن الثامن عشر ، ص ٥٤ .

(٢٨) نفس المصدر ، ص ٥٨ .

(٢٩) لونكريك ، ص ١٥٨ .

(٣٠) تاريخ العراق بين احتلالين ، ج ٥ ، ص ٢١٠ .

(٣١) حديقة الزوراء ، ج ١ ، ص ٦٧ - ٦٨ ، تاريخ العراق بين احتلالين ، ج ٥ ، ص ١٩٥ لونكريك ، ص ١٥٨ .

قبل توليه الحكم ، هما ، ضريبة (البلج) (٣٢) ، وضريبة (الطمغة) (٣٣) ، كما الغى ضرائب اخرى « كرفع الدية عن المحلة اذا قتل فيها قتيل جهل قاتله .. »(٣٤) وقد جدد حسن باشا جامع السليماني ، الذي يقع بازاء باب السراى ، فعرف باسمه فقيل : « جامع جديد حسن باشا » (٣٥) للتفريق بينه وبين جامع الوزير حسن باشا ، الوالي الذي سبقه على ولاية بغداد ، وقد عمر قبر الست زبيدة (٣٦) ، وبنى تكية للفقراء والطلبة بجانبه . (٣٧)

كان حسن باشا ، اضافة الى هذه الاصلاحات ، سمحا غير متعصب الى مذهب معين ، فكثيرا ما كان يزور المشاهد على اختلاف مذاهب اصحابها ، بل انه سمح للبعثة الكرملية التبشيرية بتاسيس دار لها في البلاد عام (١٧٢١ م) ، وكان يعني بالعلم ويحبذ عقد الندوات العلمية والدينية في مجلسه ، فراجت سوق العلم والادب في عصره (٣٨) ، اضافة الى ازدياد واردات الدولة وتوسع امورها .

حسن باشا ونظام المماليك :

لقد اسلفنا بان حسن باشا قضى شطرا كبيرا من حياته الاولى في خدمة القصر السلطاني بالعاصمة ، فهو لاريب قد شاهد القواعد العامة للحياة في ذلك القصر ، فاراد ان يتشبه بها ، خاصة في مجالي التعليم ، وتنسيق الادارة (٣٩) ، فادخلها الى بغداد ، ووضع بذلك اسس مايسمى بنظام المماليك في العراق ، الذي دام الى سنة (١٨٣١ م) . لقد كان تردى الوضع في البلاد من اهم دواعي اهتمام حسن باشا بهذا النظام ، فاضافة الى ثورات العشائر ، كانت هناك مشاكل تمرد الانكشارية المستمرة ، ولم يكن باستطاعة حسن باشا ان يركن الى الانكشارية ، الذين تطرق اليهم الفساد ، ولا الى العشائر التذبذبين بالولاء ، والذين كانوا لايخضعون بالحقيقة الا الى كيانهم العشائري ، لذلك اضطر حسن باشا الى تكوين قوة جديدة لتكون الاداة المنفذة لاوامره باخلاص(٤٠) ، او انه استعان بالمماليك واكثر منهم لتقوية سلطانه وللقضاء على الانكشارية وتحكماتهم بالولاة والدولة ، كما يرى العزاوي (٤١) . وارجح ان السبب الرئيس لاهتمامه بالمماليك ، هو تكوين قوة خاصة به ، تاتمر باوامره ، ويستطيع ان يستخدمها بحرية في حروبه وفي الازمات التي قد تمر بالبلاد ، يضاف الى ذلك ، ان عادة شراء المماليك وتربيتهم كانت قد شاعت في ذلك العصر ، وبخاصة في العاصمة استنبول .

بدا حسن باشا ، بشراء العبيد من الجركس والزنوج، واخذ يؤسس « درجات متتالية من الخدم مرتبين على شكل جماعات ، فكان منهم الخواص وامناء الصندوق ورجال المخزن ، ولهذا كان بامكان - اي - شاب من هؤلاء ان يصبح ، بعد ترفيعه من منصب لآخر او من درجة لاخرى ، شخصية من شخصيات السراي » (٤٢) . ولم يكن تدريب هؤلاء الجماعات يقتصر على الشؤون الادارية ، انما كان يشمل امور الحرب والتدريب العسكري ايضا . وبالاضافة الى الاكثرية من المماليك كان هناك اقلية من ابناء الموظفين الاتراك والعراقيين ايضا . ولم يكن الباشا هو الوحيد الذي يشتري المماليك ويربيهم ، انما قلده في ذلك الكثير من رجال السراي ، فكثر عددهم ،ونمت بينهم علاقات ، وكانوا يترقون في مجال الخدمة عند سادتهم ، ويصارن الى مرحلة العتق ومساواة الغير والتفوق عليهم ، بل انهم اصبحوا حكام البلد لفترة طويلة .

هكذا انشا حسن باشا هذا النظام وسار عليه ابنه احمد باشا ، ثم انحصرت باشوية بغداد في مماليكهم وعبيدهم الى نهاية حكم داود باشا سنة (١٨٣١ م) . ولم يكن حسن باشا واليا من المماليك كما توهم البعض (٤٣) ، ولكنه يعتبر مؤسسا لنظام المماليك ، الذي ابتدا رسميا بحكم سليمان باشا الذي تسلم ولاية بغداد بعد مايقارب السنتين من وفاة احمد بن حسن باشا عام (١٧٤٧ م) .

العلاقات الخارجية :

١ - علاقاته مع الباب العالي :

كانت علاقات حسن باشا مع العاصمة حسنة ، فقد كان يرسل بانتظام الواردات الى العاصمة ، وكان السلطان قد كافاه باعطائه ولاية البصرة ، ثم اضاف اليه ماردين وشهرزور ، ولاشك ان حسن باشا كان بدوره يستغل كل المناسبات لاثبات ولائه للسلطان ، من ذلك مثلا انه ارسل الى السلطان عقدا ثمينا كان قد وقع بيده (٤٤) وذلك تاكيدا لتقديره وولائه ، وفي الوقت نفسه ، كانت هدايا الدولة تصله في المناسبات (٤٥) ، مؤكدة تقدير الدولة واعترافها بخدماته الجلى . وكان حسن باشا يظهر ، في مختلف المناسبات ، اهتمامه بالدولة وموظفيها ، الذين كانوا يعاملون معاملة خاصة عند اول قدومهم الى بغداد ، تتضمن المبيت ليلة في الاعظمية ، ثم الدخول في اليوم التالي الى المدينة بموكب فخم ، والنزول في دار الضيافة(٤٦) . وهذا يدل على نوع من المراسيم التي تعطي انطباعا جيدا بالنسبة لموظفي الدولة ، وفي الوقت نفسه ، تظهر اهمية وقيمة والي بغداد ، في نظر القادمين ، وفي نظر جماهير بغداد ،

---

(٣٢) البلج : اتاوة تؤخذ على الغنم .

(٣٣) الطمغة : ضريبة كانت تؤخذ من الاكلاك القادمة بالحطب الى بغداد .

(٣٤) حديقة الزوراء ، جـ ١ ص ٦٧ - ٦٨ .

(٣٥) د. مصطفى جواد و د. احمد سوسة : دليل خارطة بغداد المفصل ، ص ٢٣٤ (بغداد ١٩٥٨) .

(٣٦) يعرف خطأ بهذا الاسم ، انما هو تربة الست زمرد خاتون ام الخليفة العباسي الناصر لدين الله .

(٣٧) رحلة نيبور الى العراق ، ص ٣٨ .

(٣٨) تاريخ العراق بين احتلالين ، جـ ٥ ، ص ١٧١ .

(٣٩) سليمان فائق : تاريخ المماليك « الكولة منذ » ، ص ٢٤ .

(٤٠) عبدالعزيز نوار : داود باشا والي بغداد ، ص ٢٣ (القاهرة ، ١٩٦٨) .

(٤١) تاريخ العراق بين احتلالين ، جـ ٦ ، ص ٤ .

(٤٢) لونكريك ، ص ١٩٨ .

(٤٣) بشير فرنسيس : بغداد تاريخها وآثارها ، ص ٢٢ (بغداد ، ١٩٥٩) .

(٤٤) حديقة الزوراء ، جـ ١ ، ص ٢٩-٣٠ .

(٤٥) نفس المصدر ، جـ ١ ، ص ٣٦ .

(٤٦) سليمان فائق : تاريخ المماليك « الكولة منذ » ص ٥٤ .

التي كانت تتبهر بهذه المظاهر مما يزيد تعلقها بالسلطة ، ويجب الانسى في خضم هذه العلاقة الحسنة ، ان تعيين حسن باشا على ولاية بغداد ، كان آخر تعيين يتمكن السلطان من تنفيذه لمدة مئة وثلاثين سنة ، (٤٧) فقد اعقبه ابنه احمد باشا ، ثم حكم المماليك ـ على مضض من العاصمة ـ كما مر بنا سابقا .

٢ ـ العلاقة مع ايران :

في اواخر عهد حسن باشا ، تعرضت دولة الصفويين في ايران الى هجوم من قبل الافغان بقيادة محمود خان بن ويس ، من قبيلة الغلزاي ، وكان حسن باشا يكتب الى العاصمة ، معلما السلطان بتحركات الافغان في ايران ، وفي الوقت نفسه ، كانت المكاتبات تدور بينه وبين محمود خان الافغاني (٤٨) ، ويرى البعض ، ان حسن باشا كان طامعا في ايران ، ولهذا رغب دولته « في لزوم اكتساحها » ، (٤٩) في حين انها لم تكن ترغب بذلك ، وانه هو الذي ورط العثمانيين بالحرب مع ايران بعد ان وعدهم بالنصر . ولكننا مهما كنا نؤمن بقوة شخصية حسن باشا وتاثيره ، لايمكننا ان نقبل هذا الراي ، لانه يتجاهل قوة وسيطرة الباب العالي ، بل رايه ايضا ، فليس من المعقول ان تجهز الجيوش وتقام الاستعدادات والدولة غير مقتنعة بالحرب ، خاصة وان استنبول امرت حسن باشا ان يكون على استعداد ، وان ينظف خندق بغداد ، ويرمم سورها تحسبا للطوارىء . وهناك راى آخر في هذا الامر قد يكون اشد تطرفا من الراي الاول ، وهو ان الفرس « كانوا يدسون الدسائس لالقاء بذور الفتنة في العراق (٥٠) ، ولهذا حاربهم حسن باشا ، ولكننا نعلم ان الصفويين انشغلوا في ذلك الوقت بشؤونهم الداخلية ، وبالخطر الخارجي من قبل الافغان . ومهما يكن فالثابت عندنا ، ان الاوامر وصلت الى حسن باشا باحتلال ايران عن طريق كرمنشاه ، وتضيف بعض المصادر (٥١) ، انه كان هناك تاكيد على عدم التعرض لما بيد الامير محمود الافغاني .

خضعت كرمنشاه الى حسن باشا بدون قتال ، كما استولى قواده على اردلان ، واعادوا السيطرة الى كردستان ، وقد قضى حسن باشا فصل الشتاء في مدينة كرمنشاه ، وكان قد اصابه التعب ، واثر فيه الكبر ، فتوفي قبل ربيع سنة (١٧٢٣ م) عن عمر يناهز السادسة والستين ، وهو يتهيأ لفتح مدينة همدان . ويذكر لونكريك (٥٢) ، انه كوفيء نتيجة لوفاته هذه بلقب « فاتح همدان » ، وقد شاع عنه هذا اللقب ، واظن ان سليمان فائق (٥٣) هو اول من اورد هذا اللقب في مؤلفاته ، ولكن بعض المؤرخين ، اعتمد على هذا اللقب (كحقيقة تاريخية) ، فذكر ان مدينة همدان فتحت على يد حسن باشا (٥٤) ، وهذا ما لايؤيده الواقع التاريخي . ومن الجدير بالملاحظة ، ان اقرب المصادر الاولية عهدا الى حسن باشا ، هو كتاب ، عبد الرحمن السويدي (حديقة الزوراء في سيرة الوزراء) لم يذكر فيه هذا اللقب . ومن المحتمل انه اطلق عليه باستعجال من قبل العاصمة ، توقعا منهم وأملا بفتحه لمدينة همدان .

وختاما لهذا الموضوع ، يجب التنويه الى ان السياسة التي اتبعها حسن باشا في فتوحاته في ايران ، كانت لاتختلف عما فعله مع العشائر العراقية بعد الانتصار ، فقد كان « يامر جنوده بعدم التعرض للشيوخ والنساء والاطفال ولا للذين يظهرون الخضوع والطاعة والاستسلام » (٥٥) ، وهذا يدل على استمرار هذا الوالي في التمسك بمثله العليا وطريقته في معاملة الخصوم ، والعفو عند المقدرة ، حتى في أو آخر أيام حياته .

وفاته :

توفي حسن باشا ، اثناء استعداده للقيام بحملة على مدينة همدان ، وذلك سنة (١٧٢٣ م) ، ولم يخلف حسن باشا سوى ولد واحد ، هو احمد باشا ، الذي حكم بعده ، وابنتين ، هما ، فاطمة خاتون ، وصفية خانم ، (٥٦) وقد جلبت جثته الى بغداد ، ودفن بجوار الامام الاعظم ، ابي حنيفة النعمان بن ثابت . (٥٧) وكان لموته صدى اليما في بغداد ، فاقيمت له الفواتح والمآتم والتعازي في كل مكان ، لما كان للراحل من الفضائل والمناقب .

---

(٤٧) Longrigg, Op. cit., pp. 123—124.

(٤٨) للاطلاع على نصوص هذه المراسلات ، راجع : حديقة الزوراء ، ج ١ ، ص ٨٧—٩٤ .

(٤٩) تاريخ العراق بين احتلالين ، ج ٥ ، ص ٢٠٢ .

(٥٠) الاب انستاس ماري الكرملي : خلاصة تاريخ العراق منذ نشوئه الى يومنا هذا ، ص ٢٠٤ (البصرة ، ١٩١٩) .

(٥١) تاريخ العراق بين احتلالين ، ج ٥ ، ص ٢٠٥ .

(٥٢) (انظر الحاشية رقم ٢) Longrigg, Op cit., p. 131.

(٥٣) تاريخ المماليك « الكولة مند » ، ص ١٥ ، تاريخ بغداد ، ترجمة : موسى كاظم نورس ، ص ١٢ (بغداد ، ١٩٦٢) .

(٥٤) عبدالعزيز نوار : داود باشا والي بغداد ، ص ٢٠ .

(٥٥) الشيخ رسول الكركوكلي : دوحة الوزراء في تاريخ وقائع بغداد الزوراء ، ترجمة : موسى كاظم نورس ، ص ١٧—١٨ (بيروت ، بدون تاريخ) .

(٥٦) حديقة الزوراء ، ج ١ ، ص ١١٨ .

(٥٧) نفس المصدر ، ج ١ ، ص ١١٠ .